فضيلة الحكمة

الحكمة عند أكابر العلماء الأخلاقيين من القدماء أُمُّ الفضائل وملاك الشيم الإنسانية. وأصل كل فضيلة عنها تصدر وإليها تعود، وأسمى القيم وأجلُّها، وتمام العلم وكمال المعرفة، من حواها فقد حوى الخير كله.

والحكمة: الفضيلة العليا التى تنشأُ من سيطرة القوة العاقلة على القوة الشهوانية.

والحكيم هو من يفعل الخير لأنه الخير فى ذاته لا لغرض آخر، والحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان فى قول أو فعل، فالمعرفة بالقرآن الكريم، فقهه ونسخه ومحكمه، ومتشابهه، وغريبه، ومقدمه، ومؤخره، والإصابة فى القول والفعل، والعقل فى الدين، والتفكر فى أمر الله، وطاعة الله، والخشية له والفهم، والورع كل ذلك نوع من الحكمة التى هى الجنس.

وأصل الحكمة ما يُمتَنَع به من السفه، فالعلم حكمة لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه وهو كل قبيح.

وأصل مادة الحكمة موضوع لمنع يُقصد به إصلاح.. ومنه سمى «حكمة الدابة» وقيل حكمته وحكمت الدابة، منعتها بالحكمة، وأحكمتها جعلت لها حكمة.

والحكمة تكون فى اللجام، وفسرها فى القاموس بأنها ما أحاط بحنكى الفرس من اللجام، وفسرها غيره بأنها حديدة من اللجام تكون فى الفم.

والحكم بالشىء أن تقضى بأنه كذا أو ليس بكذا، سواءُ ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه. قال النابغة الذبيانى من قصيدة يمدح فيها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه من وشاية به:

وأحكم كحكم فتاة الحى إِذ نظرت   إِلى حمام سراع وارد الثمد

وفتاة الحى قيل هى زرقاء اليمامة، ولها قصة فى حدة النظر والإِصابة من بعيد، والثمد الماءُ القليل.

والحُكم أعم من الحكمة، فكل حِكمة حُكمٍ، وليس كل حُكمٍ حكمة فإِن الحكم أن يقضى بشيٍ على شيءٍ فيقول هو كذا أو كذا.

والحكمة العدل، والحلم والعلم، وهو حكيم أى عدل حليم، وحكمه وأحكمه أتقنه ومنعه من الفساد، وسورة محكمة غير منسوخة، الآيات المحكمات مثل قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** ﴾(١)... إِلى آخر السورة، أو التى أُحكمت فلا يحتاج سامعها إِلى تأْويلها لوضوحها كأقاصيص الأنبياءِ عليهم السلام.

والحكمة من الله سبحانه وتعالى: معرفة الأَشياء وإِيجادها، على غاية الإِحكام والإتقان، ومن الإِنسان معرفة الموجودات، وفعل الخير، وإِذا وصف القرآن بالحكمة فلتضمنه الحكمة، مثل قوله تعالى فى سورة يونس: ﴿ **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** ﴾(٢). وقيل معنى الحكيم: المحكم ـ نحو قوله تعالى فى سورة هود: ﴿ **أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ** ﴾(٣). وكلا المعنيين صحيح.

وتعاليم الإِسلام تعتبر الحكمة منحة من الله يختص بها من يشاءُ من عباده فمن أَصاب من فضل الله علماً غزيزاً، وتوفيقاً فى العمل، وإِصابة فى الحكم فقد أَصاب الحكمة والخير كله.

---

(١) الأنعام: ١٥١.

(٢) يونس: ١..

(٣) هود: ١.

وقال سبحانه وتعالى فى سورة لقمان: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** ﴾[١]. وفى داود عليه السلام قال تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾[٢].

وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ **وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** ﴾[٣].

والناظر فى هذه الآيات وما جرى مجراها من الآيات التى تناولت ذكر الحكمة يلحظ أنها كلها تجعل الحكمة هبة من الله، وليست باجتهاد من الإنسان فهى إيتاء من الله وتَفَضُل منه سبحانه وذلك حق. فالإنسان باجتهاده، وقد يحصل على فضيلة من الفضائل أو أكثر. أما أن يحصل على الفضائل كلها وأن يصل إلى الكمال الإنسانى بحصوله على الحكمة فذلك أمر لا يتأتى بالاجتهاد ولايحصل إلا بتوفيق من الله فهو مصدر الحكمة، ومنه يفيضها على من يشاءُ من أنبيائه وأوليائه الذين ينصبهم مثلا عَلَيًّا يجتهد الناس فى التمثل بهم، والسير على منهاجهم. ولا يعنى هذا أن نيأس من الحصول على فضيلة الحكمة بل على الإنسانية أن تسعى فى الاقتراب منها قدر الإمكان ، ولكل منها على قدر اجتهاده.

واين مسكويه فى كتاب «تهذيب الأخلاق» يرى:

أن الحكمة فضيلة النفس الناطقة المميزة، وهى أن تعلم الموجودات كلها من حيث هى موجودة . وإن شئت فقل أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يُغفل.

والحكمة تقتضى من طالبيها بصراً بالأمور، وعمقاً فى الفهم، ودقة فى الإدراك، وأناة فى التفكير، وحذراً وحيطة قبل الاندفاع فى الفعل. وهذه الأُمور لا تُنال بالعلم المأخوذ من المعاهد والمدارس، أو بالمعرفة المستفادة من بين دفتى كتاب. ولكن مكانها الحقيقى هو الكون المنشور فى مدرسة الحياة يتعلم الإنسان منها الحكمة والدراية والبصر بالأمور . وكم من أُناس يحملون من الإجازات

(١) لقمان: ١٢.
(٢) ص: ٢٠.
(٣) البقرة: ٢٥١.

المدرسية والدرجات العلمية الشيءَ الكثير وهم لا يفقهون من أُمور الحياة إلا أقل القليل. وكم من أُناس لم يدخلوا مدرسة فى حياتهم ومع ذلك تراهم قد عركوا الحياة، وعركتهم الحياة، فتعلموا منها ما يجعلهم على قدر كبير من الفضيلة، وحظ غير قليل من الحكمة.

والشائع المتواتر على ألسنة العلماء يؤْخذ منه أن الحكمة هى الإصابة فى العلم والعمل، لأن العلم الصحيح يكون صفة محكمة فى النفس حاكمة على الإرادة، توجهها إلى العمل. ومتى كان العمل صادراً عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح النافع المؤدى إلى السعادة.

وفى المنار: «كم من محصل لصور كثيرة من المعلومات خازن لها فى دماغه ليعرضها فى أوقات معلومة لا تفيده هذه الصورة التى تسمى علماً، فى التمييز بين الحقائق والأوهام، ولا فى التمييز بين الوسوسة والإلهام، لأنها لم تتمكن فى النفس تمكناً يجعل لها سلطاناً على الإرادة، وإنما هى تصورات وخيالات تغيب عند العمل وتحضر عند المراء والجدل».

فالعقل هو الميزان القسط الذى توزن به الخواطر والمدركات، ويُمَيَّزُ به بين أنواع التصورات والتصديقات. فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام، وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام، وهذا القول يتفق مع ما روى عن ابن عباس من: «أن الحكمة هى الفقه فى القرآن» أى معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بعللها وحكمها لأن هذا الفقه هو أجلُّ الحقائق المؤثرة فى النفس، الماحية لما يعرض لها من الوساوس حتى لا تكون مانعة من العمل الصالح.

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾[1]. فالله سبحانه وتعالى جعل الخير الكثير مع الحكمة فالخير والحكمة لا يفترقان كما لا يفترق المعلول عن علته التامة.

(١) البقرة: ٢٦٩.

فالحكمة هى العلم الصحيح المحرك للإرادة إلى العمل النافع الذى هو الخير.

وآلة الحكمة هى العقل السليم المستقل بالحكم فى مسائل العلم فهو لا يحكم إلا بالدليل، فمتى حكم جزم فأمضى وأبرم .

وكرر الله ذكر الحكمة فى الآية ولم يضمرها اعتناءً بها وتنبيها على شرفها وفضلها وليس كل عمل فكرى أو تصورى أو فنى أو سلوكى يصدر من الإنسان يسهم فى الحضارة الإنسانية وإنما الذى يسهم ذلك العمل الذى يصدر من الإنسان ممثلا لخصيصة من الخصائص الإنسانية.

فالعمل الفكرى الدقيق، والتصور الرفيع، والسلوك الرشيد، هو أساس الحضارة الإنسانية والعامل فى نموها وتقدمها.. فالإنسان الحكيم هو صاحب الحكمة وهو الذى بذل جهدا وتجلت إرادته وأصبح ذا فاعلية، وخرج عن التأثر وأضحى مؤثرًا: مؤثرا بفكره وبتصوره، وبسلوكه فى التوجيه والتعبير. وللحكمة أثر بعيد المدى فى ضبط سلوك الأفراد والمجتمعات، بها تتجنب مزالق الأقدام وتتوقى الأخطار.

وما كانت الحكمة شأن فرد إلا أصاب النجاح والفلاح، ولا كانت خلق أمة إلا وصلت إلى الحضارة الراقية من أقرب طريق. وكيف لا، والحكمة تقتضى قبل كل عمل تبصرا بالأمور من جميع النواحى، وحذرا وحيطه قبل الاندفاع فيها فتؤمن بذلك المغبة وتزكو الثمرة.. وتعاليم الحكمة لم تكن معروفة إلا قليلا فى عصر الجاهلية العربية. فلما جاءَ الإسلام الحنيف مجد الحكمة، ودعا إليها، وزخر الأدب الإسلامى بذكرها ، ولهج بها الشعراءُ والكتاب والعلماءُ والأُدباءُ.

ومن حكم ابن دريد:

وأفضل قسم الله للمرءِ عقله

فليس من الخيرات شيءٌ يقاربه

فزين الفتى فى الناس صحة عقله

وإن كان محظوراً عليه مكاسبه

يعيش الفتى بالعقل فى كل بلدة
على العقل يُجرى علمه وتجاربه
ويزريه فى الناس قلة عقله
وإن كرمت أعراقه ومناسبه
إذا أكمل الرحمن للمرءِ عقله
فقد كملت أخلاقه ومآربه

وما أبدع قول الشاعر :

ابدأْ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وكفى الحكمة شرفا وفضلاً أن وصف الله سبحانه وتعالى ذاته العلية بها فى غير موضع من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾[1]. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾[2]. والحكيم ذو الحكمة. والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياءِ بأفضل العلوم.

والمجتمعات الإنسانية فى أشد الحاجة إلى الحكمة، تنشدها فتجد فيها مبتغاها، وتطلبها فتجد فيها الأمن والأمان، وتنطلق بها فتصل إلى مراقى السعادة، وتعمل بها فتحظى بكل تقدير.

وإن نظرة تقويمية لوجودنا ، ولحظة فحص وامتحان لكل مقوماتنا، ومراجعة واقعية لمفاهيمنا وسلوكنا، إن فحصا موضوعياً لكل هذا يرينا أننا بدون الحكمة سوف نضل الطريق، ونقع فى متاهات موغلة فى الظلام الجهم. والجاهلية العمياء.

---

(١) يوسف: ٨٣.
(٢) النساء: ١١.

ولعل خير الطرق لاكتساب فضيلة الحكمة والتحلى بها هو الأخذ بأفضل أساليب التربية الأخلاقية، والعمل على أن نأخذ سمت الحكماء الحقيقيين، الذين يؤثرون القناعة والاعتدال، والحق والعدل فى أعمالهم، والصدق فى أقوالهم.

وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

* * *